القسم الثاني من محاضرات مادة الفلسفة

قسم علم الاجتماع (المرحلة الأولى)

اليوتوبيا أو المدينة الفاضلة

كان توماس مور More Thomas) ١٤٧٨–١٥٣٥م) هو أول من صاغ كلمة يوتوبيا Utopia، ووضعها عنوانًا لكتاب له. لغةً تعني كلمة topia المكان، أما الحرف u السابق للكلمة فهو أداة نفي، فيصبح معنى الكلمة اللامكان، أو في اللامكان. واستعمل هذا اللفظ ليعني نموذجاً لمجتمع خيالي مثالي يتحقق فيه الكمال أو يقترب منه، ويتحرر من الشرور التي تعاني منها البشرية، ولا يوجد مجتمع كهذا في بقعة محددة من بقاع الأرض، بل في أماكن وجزر متخيلة، وفي ذهن الكاتب نفسه وخياله قبل كل شيء. وتظل اليوتوبيا تصورا فلسفياً ينشد انسجام الإنسان مع نفسه ومع الآخرين ومع مجتمعه. فالفكر اليوتوبي معني في الدرجة الأولى بخلق أفكار وتصورات للانسجام الاجتماعي، وهو يصدر عن الخيال الأدبي أو التصور الفلسفي، ويختلف كل الاختلاف عما يسمى في عصرنا بعلوم المستقبل التي تقوم على التخطيط العلمي والرياضي للمستقبل، على أساس الإمكانات الكامنة في الواقع الراهن.

ويلعب الخيال الدور الأكبر في كل الأشكال والمشروعات اليوتوبية بدءًا من جمهورية أفلاطون وانتهاء بروايات الخيال العلمي. ولكن الأفكار والخيالات والأحلام اليوتوبية لم تكن غير استجابات مختلفة للمجتمعات التي نشأت فيها، فكانت تعبيراً عن الرغبة في تغيير الواقع القائم وتجاوزه، والحلم بحياة ومجتمع أفضل وأكثر عدلاً، ولذلك لا يمكن فهم التفكير اليوتوبي قديمه وحديثه حتى نضعه في سياق التطور التاريخي والاجتماعي، لنعرف أنه كان صرخة احتجاج على أوضاع وظروف اجتماعية ظالمة وفاسدة.

 تناولنا فيما سبق جمهورية أفلاطون، وهي أول نموذج لليوتوبيا أو المدينة الفاضلة. ونتناول الآن المدينة الفاضلة عند الفارابي.

أبو نصر الفارابي:

هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان الفارابي. ولد عام 260 هـ/874 م في فاراب في إقليم تركستان وتوفي عام 339 هـ/950م . فيلسوف مسلم اشتهر بإتقان العلوم الحكمية وكانت له قوة في صناعة الطب. ولد الفارابي في مدينة فاراب، ولهذا اشتهر باسمه نسبة إلى المدينة التي عاش فيها. كان أبوه قائد جيش، وكان ببغداد مدة ثم انتقل إلى سوريا وتجول بين البلدان وعاد إلى مدينة دمشق واستقر بها إلى حين وفاته.

في كتابه **آراء أهل المدينة الفاضلة**، وضع الفارابي مفهومه عن المدينة الفاضلة. يقول الفارابي إن الإنسان اجتماعي بطبعه ومضطر إلى أن يعيش في مجتمع، ومن هنا نشأت الجماعات الإنسانية. فالإنسان لا يبلغ أفضل كمالاته إلا بالاجتماع. والمدينة الفاضلة في نظره هي ما تتحقق فيها سعادة الأفراد على أكمل وجه. ولا يكون ذلك إلا بتعاون أفرادها على الأمور التي توفر السعادة. فيختص كل منهم بالعمل الذي يجيده ومهيأ له من حيث طبيعته. فالمدينة الفاضلة تشبه البدن الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على إتمام الحياة وحفظها. وأهم وظيفة في المدينة وأكبرها خطراً هي وظيفة الرئاسة، ذلك لأن رئيس المدينة هو السلطة العليا التي تستمد منها السلطات، وهو المثل الأعلى الذي ينتظم جميع الكمالات. فهو مصدر حياة مدينته وقوام نظامها. ومنزلته من سائر أفرادها كمنزلة القلب من أعضاء الجسم. ففي الجسم عضو رئيس وهو القلب تخضع له سائر الأعضاء وتختلف مراتبها بالنسبة إليه. فمنها ما تتصل به مباشرة وهي أعضاء تتمتع بقوة فطرية تجعلها تقوم بأعمالها وفقاً لما يقتضيه القلب، وبحسب ما يصدر إليها منه عن طريق مباشر، وتأتي هذه في المرتبة الأولى بعد القلب، مثل المعدة والكبد، ومنها ما يتصل مباشرة بأعضاء المرتبة الأولى ويخضع لها فيفعل أفعاله بالفطرة وفق ما تبتغيه، وهذه هي أعضاء المرتبة الثانية، وذلك مثل المرارة والكلية المرؤوستين للكبد. وهكذا دواليك إلى أن تأتي في المرتبة الأخيرة أعضاء تخضع لغيرها ولا يخضع لها غيرها، وذلك مثل المثانة التي تخضع للكِلية وتخدمها. وعلى هذه الصورة نفسها يكون أفراد المدينة، فهم مختلفون ومتفاضلون في فطرهم وما هيئوا له. ومن ثم اختلفت مراتبهم وتباينت درجاتهم ففيهم رئيس هو أكملهم جميعاً ويخضع له ما عداه. ويليه في المرتبة أفراد يتصلون به مباشرة، ويتلقون منه الأمر، وهؤلاء في المرتبة الأولى بعد الرئيس. ويلي هؤلاء أفراد يتصلون بهم مباشرة ويخضعون لهم، فيفعلون أفعالهم وفق ما يبتغيه أهل المرتبة الأولى، وهؤلاء أهل المرتبة الثانية، وهكذا دواليك، إلى أن يأتي في المرتبة الأخيرة أفراد مهيؤون لأن يخضعوا لغيرهم بدون أن يهيؤوا لأن يخضع لهم غيرهم.

وكل ما بين أجزاء الجسم وأفراد المدينة من فرق هو أن الأعمال التي تقوم بها أجزاء الجسم طبيعية على حين أن الأفعال التي يضطلع بها أفراد المدينة إرادية تصدر عن اختيار. فالأفراد الذين تلي منزلتهم منزلة رئيس المدينة يؤدون من الأفعال الإرادية أشرف هذه الأفعال وأنبلها بالقياس إلى ما يقوم به غيرهم من الأفراد، ومن دونهم يقومون بما هو دون ذلك، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى أفراد يقومون بأخس الأعمال، وهؤلاء هم أحط الطبقات منزلة وأبعدها عن الرئيس. أما لماذا تكون هذه الأعمال خسيسة فذلك كما يرى الفارابي ناشئ عن خسة موضوعاتها، أي خسة مادتها وما تشتمل عليه، وإن كانت وظيفتها كبيرة الأهمية. وذلك كالعمل الذي تقوم به المثانة والأمعاء السفلى في البدن. وهي خسيسة لضعف أهميتها وسهولتها، فهي لا تتطلب جهداً. وكذلك يصدق الحال على بعض أفراد المدينة، تكون أعمالهم خسيسة لنفس الأسباب.

ولا يصلح للرئاسة إلا من كانت له صفات فطرية ومكتسبة يتمثل فيها أقصى ما يمكن أن يصل إليه الكمال في الجسم والعقل والخلق والدين. والصفات الفطرية هي اثنتا عشرة صفة: 1.أن يكون تام الأعضاء سليمها. 2. أن يكون جيد الفهم والتصور لكل ما يقال له.3. جيد الحفظ لما يفهمه وما يسمعه وما يراه. 4. جيد الفطنة ذكياً. 5. حسن العبارة يواتيه لسانه على إبانة كل ما يضمره إبانة تامة. 6. أن يكون محباً للعلم والإفادة منه منقاداً له سهل القبول لا يؤلمه تعب العلم. 7. ألا يكون شرهاً مبغضاً للَّذات. 8. أن يكون محباً للصدق وأهله. 9. أن يكون كبير النفس محباً للكرامة. 10. أن يكون الدرهم والدينار هيِّنة عنده. 11. أن يكون محباً للعدل وأهله، ومبغضاً للجور والظلم وأهلهما. 12. أن يكون قوي العزم على الشيء الذي ينبغي فعله، جسوراً عليه، مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس.

وقد اعترف الفارابي أنه من النادر أن تتوافر هذه الصفات جميعاً في شخص واحد، ولذلك قال إذا لم تتوفر جميع هذه الشرائط في الرئيس فيجب أن يتوفر فيه ست صفات: أن يكون حكيماً، حافظاً للشرائع، وجودة استنباط في المسائل التي لم تقل الشريعة عنها شيئاً ولكنه يحتذي فيها ما قاله الأئمة السابقون، وجودة استنباط في الأمور المحدثة مما لم سبقه إليه أحد في حكم، جودة إرشاد، وجودة في بدنه لأغراض الحروب.

والصفة الأولى، أي الحكمة، هي أهم هذه الصفات، حتى إنه إذا لم يوجد إنسان واحد اجتمعت فيه هذه الشرائط، ولكن وجد اثنان: أحدهما حكيم، والثاني فيه الشرائط الباقية كانا هما رئيسين في هذه المدينة. فإذا تفرقت هذه الشرائط في جماعة وكانت الحكمة في واحد، والشرط الثاني في واحد، والشرط الثالث في واحد، والشرط الرابع في واحد، والشرط الخامس في واحد، والشرط السادس في واحد، وكانوا متلائمين كانوا هم الرؤساء الأفاضل فمتى اتفق في وقت ما أن لم تكن الحكمة جزء الرئاسة وكانت فيها سائر الشرائط بقيت المدينة الفاضلة بلا ملك، وكان الرئيس القائم بأمر هذه المدينة ليس بملك، وكانت المدينة تعرض للهلاك. فإن لم يتفق أن يوجد حكيم، لم تلبث المدينة بعد مدة أن تهلك. إذن الحكمة هي الشرط الذي لا غنى عنه للمدينة الفاضلة.

**حيّ بن يقظان**

 نتناول في هذه الفقرة قصة رمزية غير واقعية بعنوان "حيّ بن يقظان" كتبها ابن طفيل. وهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل الأندلسي، المعروف بابن طفيل (1100-1185 م.) فيلسوف وعالم وطبيب عربي مسلم ورجل دولة. وُلد قرب غرناطة وتوفي في مراكش.

تحكي هذه القصة عن وليد رضيع وضعته أمه في تابوت صغير وألقته في البحر، فحمله البحر إلى جزيرة نائية لا يسكنها بشر. وعند ساحل الجزيرة اكتشفت ظبيةٌ هذا التابوت، ووجدت فيه الرضيع، فحملته وربته. وعاشا معاً، فكان يحاكي صوتها، فألفته الحيوانات، وألفها. ولما كبر قليلاً وجد أنه يختلف عن الحيوانات، فهذه يكسوها وبر أو شعر أو ريش، أما هو فليس يكسوه شيء، فضلاً عن أنه ضعيف مقارنة ببقية الحيوانات. ولأنه اكتشف أنه عار، فأخذ من ورق الشجر يلبسه ليستر نفسه، واتخذ من أغصان الأشجار أعواداً يطرد بها الحيوانات. ثم اهتدى إلى شَعر نسر ميت، فلبسه وكان ذلك لباساً أفضل من ورق الشجر، ويوفر الدفء. ثم ماتت الظبية التي كانت تربيه، فاحتار ولم يعرف ما حلّ بها. حاول أن يوقظها، فلم تستيقظ، فأدرك أنه حلّ بها شيء لا يمكن علاجه. ولكنه أخذ يتساءل أين الخلل الذي أصابها. فاكتشف أن أعضاءها الظاهرة سليمة، ففكر أن العلة ربما في عضو غير مرئي. وبعد تشريحه لجسد الظبية، اكتشف أن الموت داء يصيب شيئاً في الجسد لا نعرفه ولا نحسه. واستنتج أن الإنسان ليس بجسده إنما بذلك الشيء الخفي. فالجسد مجرد آلة. ثم بدأ جسد الظبية ينتن، وشاهد غراباً يدفن غراباً آخر، فتعلم من الغراب كيف يدفن الظبية. ثم اكتشف النار عندما انقدحت شجيرة بنار صاعقة. وأخذه العجب من هذا الشيء العظيم ألا وهو النار. واكتشف بالمصادفة أن النار تشوي اللحم، وتوفر النور، وتمده بالدفء. واعتقد أن الشيء الذي أصابه العطب في جسد الظبية أمه هو من جنس هذه النار، لأن الأجساد الحية تكون حارة، وعندما تموت تبرد. واكتشف أن جسد الكائن الحي متعدد من حيث أعضاؤه وواحد من حيث هذا الشيء الحار الذي يشبه البخار في قلبه. فهو الذي يتخلل الجسد ويمنحه الحياة. وأخذ بعد ذلك يستأنس الحيوانات البرية ويألفها ويدجنها. إذن في الجسد شيء ليس جسداً. هذا الجسد ينحل ويتفكك، وكذلك جميع الأجساد، وكذلك جميع أجزاء الوجود، فهي مادية، فلابد من أنها تنحل وتتفكك وتفنى. فمن الذي أوجد هذه الأجساد، وهذه الموجودات جميعاً؟ هل كانت موجودة من القدم، أم أنها خُلقت بعد أن لم تكن مخلوقة؟ إذا كان العالم حادثاً، فمن الذي أحدثه، وأخرجه إلى الوجود؟ فلابد من خالق لهذا العالم، ولابد من أن هذا الخالق لا يمكن إدراكه بالحواس، لأن الحواس تدرك المادي والمحسوس. والخالق لا يمكن أن يكون من جنس مخلوقاته. وفي يوم من الأيام قصد الجزيرة شخص اسمه أبسال، وهو من العارفين الزهاد. فالتقى بحي بن يقظان. وبعد أن تعارفا، أخذ أبسال يعلمّ حيّ بن يقظان اللغة. فكان يشير إلى أعيان الموجودات وينطق باسمها حتى تعلم حي بن يقظان اللغة. تعجب أبسال من كل المعارف الدينية والأخلاقية التي وصل إليها حيّ بن يقظان على الرغم من أنه لا يعرف الأديان. وتأكد لديه أن الحقيقة التي ينقلها الدين هي نفس الحقيقة التي يتوصل إليها العقل الإنساني بنفسه. ولكن ما يعطل كلاً من العقل والدين إنما هو جشع الإنسان وأنانيته. تحكي هذه القصة قصة تطور العقل الإنساني، منذ بداياته الأولى، فالإنسان في حالة اكتشاف دائم للعالم من حوله. وبوسع الإنسان، كل إنسان، أن يصل إلى الحقيقة الإلهية إذا عكف فعلياً على دراسة الوجود من حوله. فآيات الله الكونية والطبيعية والحيّة تدلّ عليه. وما على الإنسان إلاّ التخفف من أعبائه الجسدية والتفرغ للحكمة والعقل، والتدبر في آيات هذا الوجود، ليصل إلى ما يتضمنه الدين نفسه.

تتناول هذه القصة مسألة مهمة هي العلاقة بين الدين والفلسفة، بين الإيمان والعقل، بين الشريعة والحكمة، بين النقل والعقل. فهل هما متعارضان، أم يكمل أحدهما الآخر؟

**العلاقة بين الفلسفة والدين**

هذه مسألة ظهرت ملحة وضرورية في الفكر الإسلامي القديم خصوصاً بعد أن تمت ترجمة الفلسفة اليونانية إلى العربية في العصر العباسي. فلقد بدا لبعضهم أن الفلسفة تتعارض من الدين، لذلك حرّموا الاشتغال بالفلسفة، وقالوا إنه يكفينا ما جاء به الوحي والقرآن الكريم والسنة النبوية، ولا حاجة إلى إعمال العقل والتفكير. ولكن هناك الكثير من الفلاسفة لم يجدوا تعارضاً بين العقل والدين، بل إنهما طريقان يقودان إلى الغاية الواحدة نفسها ألا وهو معرفة الله والإيمان به. ولكن الفلسفة تتخذ من البرهان العقلي سبيلاً لها، بينما الدين يتخذ من الإيمان بما جاء به الوحي سبيلاً له. وليدنا في العصر الحديث من رجال الدين من اشتغل في ميدان الفلسفة وبرع فيها وألف كتباً مهمة وهو السيد الشهيد محمد باقر الصدر. الذي ألف كتاب فلسفتنا، وكتاب الأسس المنطقية للاستقراء. ولقد أثبت فيهما أحقية التفكير العقلي، وقدرته على إثبات وجود الله. وفي هذه النقطة سوف نتناول جانباً من المحاجة التي سطّرها ابن رشد (520 هجري/ 1126 ميلادي – 595 هجري- 1198 ميلادي)، في كتابه "كتاب فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال":

إن كل فعل الفلسفة ليس سوى النظر في الموجودات، واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع، أي من جهة أنها مصنوعات لصانع صنعها، لذلك فإن معرفة المصنوعات تدل وتقود إلى معرفة صانعها. وكلما كانت المعرفة بالمصنوعات أتمّ، كانت معرفة الصانع أتمّ. وكان الشرعُ قد ندب إلى اعتبار الموجودات، وحثّ عليه. فهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تدعو إلى اعتبار الموجودات وتطلب معرفتها كقوله تعالى "واعتبروا يا أولي الأبصار" (الحشر، آية 2). وقوله تعالى "أوَلَم ينظروا في مَلَكوت السموات والأرضِ وما خلقَ الله من شيء" (الأعراف، آية 184). وإذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارها، وكان الاعتبار ليس سوى استنباط المجهول من المعلوم، واستخراجه منه، فواجب إذن أن نجعل نظرنا في الموجودات بالقياس العقلي. وهذا النوع من القياس يسمى القياس البرهاني.

والبرهان صنعة تشتغل بها جميع الملل والأمم، فالعقل عام وكلي لا يختص بملة دون غيرها. ولذلك، لا ضير من الاستعانة بعلوم الأولين من الأمم الأخرى كاليونان مثلاً. فنأخذ منهم ما هو صواب، ونطرح ما هو ليس كذلك. ويريد ابن رشد بذلك أن يقول إن العلم تراكمي تنتفع به جميع الملل، ويستفيد المتأخرُ منهم في الزمان من المتقدم عليه زماناً.

**التفكير النقدي**

غرض الفلسفة العلمُ اليقين، ولا يمكن الوصول إلى هذا العلم من دون التفكير تفكيراً نقدياً في كل ما يعرض لنا من أفكار ومبادئ وتصورات. يجب التفكير فيها تفكيراً نقدياً، بمعنى أن لا نقبلها إلاّ إذا أقمنا عليها الدليل، وبرهنا عليها برهاناً دقيقاً وصادقاً. لذلك، بين الكثير من الفلاسفة أن العقل الإنساني قد يضل عن الصواب. وسوف نستعرض في أدناه أفكار بعض الفلاسفة بخصوص كيف يمكن أن يضلَّ العقل الإنساني.

أمثولة الكهف الأفلاطونية

يستعمل أفلاطون أمثولة الكهف لكي يبين لنا كيف أن العقل الإنساني قد يقع أسير حواسه، وإدراكاته الخاطئة، ويظنها حقيقية. والحكاية تقول: إن هناك أشخاصاً مقيدون منذ ولادتهم في كهف لا يرون إلا حائطاً أمامهم، ومن خلفهم نار وهناك فتحة الكهف التي يمر بجوارها ناس يحملون أشياء وحاجيات، فتعكس النار ظلالهم على الحائط الذي يراه المقيدون. هذه الظلال المنعكسة على الحائط هو كل ما تدركه حواسهم، ولا شيء آخر. في مثل هذا الوضع يظن هؤلاء السجناء المقيدون أن ما يرونه هو الواقع وهو الحقيقة. لأنهم اعتادوا على رؤيته ولم يروا شيئاً آخر، ولا يمكنهم أن يتخيلوا أن ما يرونه مجرد ظلال لأنهم لكي يكتشفوا أن هذه ظلال فيجب مقارنتها بأشياء واقعية ولأنهم لم يروا غير هذه الظلال، فلا يستطيعون اكتشاف أنها مجرد ظلال. وفي يوم من الأيام استطاع أحد هؤلاء السجناء أن يفك قيده ويخرج من الكهف، فيبهره ضوء الشمس، ويرى عالماً آخر غير ذاك الذي كان فيه. فيدرك أن هذا العالم الجديد هو العالم الحقيقي، وعندما يعود إلى رفاقه ويحكي لهم عما رآه، لا يصدقونه، ويهددونه بالقتل، ويرفضون أن يفك قيودهم.

هذه الحكاية المتخيّلة فيها درس أساسي وهو إن ما تدركه وتعتقده إنما قد يكون مجرد ظل وليس الحقيقة. إن رؤية ما في الحياة من أفكار مختلفة تساعد المرء على أن يزنَ ما لديه، ويقيمه، ويتوصل بالمقارنة والتحليل إلى فهم دقيق وواقعي. من يظن أنه امتلك الحقيقة من دون أن يبرهن عليها ومن دون أن يقيم الدليل عليها، ويظن في الوقت نفسه أن الآخرين على خطأ إنما هو حاله حال أولئك السجناء المقيدين، فهو أيضاً مقيد بأهوائه. "أفرأيت من اتخذ إلهَه هَواه" (سورة الجاثية، آية 23).

**أوهام العقل**

يحدد الفيلسوف الإنكليزي فرانسيس بيكون (1561-1626) أربعة أنواع مما يسميها بأوهام العقل، أي أوهام قد تضلُّ الإنسان عن رؤية الواقع كما هو أو الحقيقة كما هي. وهو يستعمل أسماءً مجازية لكل نوع منها:

1.أوهام القبيلة:

يقصد بيكون بأوهام القبيلة أوهام النوع البشري، أي الطبيعة البشرية. فنحن كبشر قد تسيطر علينا أوهام مثل أن نحتكم إلى حواسنا ونجعلها هي المقياس. والخطأ في هذا أن الحواس تخصنا ولا تخص العالم من حولنا، فنظن أن ما تنقله لنا الحواس هو العالم فعلياً. فغالباً ما تخطئ الحواس، وخطؤها ليس سببه العالم نفسه، بل سببه تقييمنا وثقتنا بها نحن. كما أن الطبيعة البشرية ميالة إلى أن تأخذ ما يؤيد ما تعتقد به وترفض ما ينافيها. أي أننا نبحث عن التأييد لما في نفوسنا لا إلى التفنيد. ومن هنا قول الإمام الشافعي:

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عين السُخط تبدي المساويا

فالإنسان ميال لمن يرضى عنه ولا يجد فيه عيباً، أما من نسخط منه ولا نوده فلا نرى في أفعاله إلا المساوئ. كما تتجلى أوهام القبيلة، أي أوهام الطبيعة البشرية، في سرعتنا بالتعميم. ما أن نجد عملاً قبيحاً من شخص ما حتى نعمم حكمنا على كل أفعاله، أو ما أن نجد فعلاً قبيحاً يصدر عن شخص ما حتى نعمم ذلك على كل أفراد الجماعة التي ينتمي إليها.

2. أوهام الكهف

الكهف هنا يعني كهف الفردانية، لكل واحد منا تكوينه الخاص، وثقافته وتربيته وقدوته في الحياة. فتتولد في ذهن الفرد قناعات وأحكام لا يستطيع أن يتخلى عنها، أو في الحقيقة لا يستطيع أن خطأها إذا كانت خطأً. فيغتر بما لديه، ويظن أنّه صاحب الحق وغيره على باطل، أو يظن أنه يحسن صنعاً، وهو في الحقيقة يفعل العكس. قد تصبح هذه الأشياء أوهاماً تَحُولُ دون أن نرى الواقع على حقيقته.

3. أوهام السوق

هي تلك الأوهام التي تنشأ عن تواصل الناس واجتماعهم ومداولاتهم. والتواصل بين الناس يكون من خلال اللغة، لذلك تكون اللغة أحياناً سبباً في إيهامنا بأشياء أو وقائع أو أحكام معينة كما لو أنها صحيحة لكثرة ما نتداولها. لنأخذ كلمة أب أو والد. هذه الكلمة قد تستعمل أحياناً في غير موضعها الحقيقي، فننقلها من الأب الحقيقي إلى وصف مثلاً رئيس الدولة ونقول عنه إنه أب لنا، أو مسؤول الحزب، ونقول عنه إنه أب لنا. في حين أن علاقتنا بالرئيس أو بمسؤول الحزب هي ليست نفس علاقتنا بالأب الحقيقي. هذا الوهم قد ينتج عنه مثلاً إننا لا نعترض على ما يقوله الرئيس لأنه أب لنا مثلما لا نعترض على ما يقوله الأب الحقيقي.

4. أوهام المسرح

هي الأوهام التي تسربت إلى عقول البشر من النظريات والأفكار والأقوال السابقة، ونظل نأخذ بها لا لشيء إلاّ لأنها القدماء قالوا بها. أو أحياناً نعيش في أجواء تلك النظريات والأفكار كما لو أنها تظل حقيقية دائماً ولا يمر عليها الزمان، ولا تكون خاطئة.

**الشك الديكارتي**

كان الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (1596-1650) أول فيلسوف مهم في الفلسفة الحديثة، ويسمى أبو الفلسفة الحديثة. وكان مؤسس منهج فلسفي يقوم على ما يسمى بالشك المنهجي. وخلاصة هذا الشك هو: إنني أريد أن أصل إلى اليقين، ولكنني لا يمكن أن أصل إليه إلاّ بالدليل والبرهان. ولكن قبل الحصول عليهما يجب أن أشك في كل شيء. فشكَّ ديكارت بالحواس، فهي غالباً ما تخدعنا، كما أنها قد لا تنقل إلنا الواقع كما هو. وامتد شكه لوجود الأشياء المادية، فما يدريني أن هذه الأشياء حقيقية ربما تكون وهماً أو حلماً. وما يدريني أني لست في حلم. ولقد لاحظ ديكارت أن الأحلام يمكن أن تكون حيَّة جدًّا مثلها مثل تجربة اليقظة؛ فعندما نصحو من نومنا من الممكن أن نشعر بالذهول لعدم كوننا في المكان أو الظروف التي كنا نحلم بها. وفي الأحلام، نصدق أشياء عادةً ما نجدها زائفة في اليقظة. وخلاصة القول إن الأحلام يمكن أن تضللنا، ولكن لا تستدعي الحاجة وجود شيء في الحلم أو اليقظة يدلنا على التمييز بينهما. كيف يمكننا الجزم إذن بأننا لسنا نحلم الآن؟ إذا لم يمكننا الجزم، فربما إذن أن المعتقدات التي تشكلت خلال تجربتنا الحالية كلها زائفة، وإذا كنا نعيش في عالم الأحلام دومًا، فربما أن جميع المعتقدات التي آمنا بها «يومًا ما» زائفة على الإطلاق. جل ما كان ديكارت بحاجة إليه هو إمكانية الزعم بأن التجربة الواعية تجربة حالمة، فإذا لم نستطع أن نستبعد تلك الإمكانية، فلا يمكننا النظر إلى التجربة الواعية باعتبارها مرشدًا موثوقًا للطبيعة الحقيقية للأشياء بمعزل عن التجربة. فما من أحد يستطيع أن يقول: «لقد حلمت بأمر ما؛ ولذلك فلا بد أنه حقيقي.» كيف لأحد أن يقول استنادًا إلى أي مبرر: «لقد رأيته؛ ولذلك فلا بد أنه حقيقي.» إذا كان النظر، على حد علمنا، تجربة حالمة؟

استخدم ديكارت فرضية الحلم لإضعاف ثقته في مجموعة كبيرة من المعتقدات التي تمليها التجربة الحسيَّة. شك في العالم من حوله، في وجود الأشياء، بل شك حتى في الحقائق الرياضية. وافترض أنه ربما هناك شيطان ماكر يضله، فيصور له هذه الأشياء على أنها موجودة وهي في الحقيقة ليست كذلك.

يريد ديكارت من ذلك أن يبين أنه ليس هناك تطابق بين ما يجري في تصوراتي أنا والواقع الخارجي. والخطوة الرئيسية التي يجب اتباعها لكي نتخلص من هذا الشك هو أن نثبت حقيقة الذات. ويقول ديكارت أنه يمكن أن يشك في كل شيء ولكنه لا يستطيع أن يشك في شكه نفسه. وهذا الشك ليس شيئاً مادياً إنما هو فكر. إذن هو يفكر. ولكن الفكر ليس موجوداً لوحده، إذ لابد أن يجري داخل ذات معينة. فينتهي إلى عبارته الرئيسية أنا أفكر إذن أنا موجود.

وعندما أفحص هذه الذات أجد من بين ما لدي فكرة كائن كامل، هو الله. ولابد أن يكون الله موجوداً، لأن فكرة الكمال لا يمكن أن تصدر عن كائن غير كامل. فكرة الكائن اللامحدود واللامتناهي والمطلق لا يمكن أن تصدر عن كائن محدود ومتناهي وجزئي. إذن فإن الله موجود، وإلاّ كيف تتأتى هذه الفكرة لذات غير كاملة.

الدرس الذي نستخلصه من عبارة ديكارت أنا أفكر إذن أنا موجود، هو ليست فقط لإثبات وجود العالم وذواتنا، بل لإثبات أن من لا يفكر لا وجود له على الحقيقة. الفكر هو أساس الحياة. والمجتمع الذي يلغي فاعلية الفكر إنما هو يلغي نفسه، ويتحول إلى مجرد عدم.